بين التاريخ والأدب

للمرحوم الدكتور عبد الرزاق حميده
رئيس قسم اللغات

قمت بتدريس الأدب العربى فى كلية دار العلوم جامعة القاهرة ، وفى كلية البنات جامعة عين شمس ، ما يقرب من عشرين عاما ، واتصلت فى أثنـاء ذلك بالتاريخ وكتبه ، ولفت نظرى ما هنالك من تفاعل بين التاريخ والأدب وتأثير كل منهما فى الآخر • فقد رأيت التـاريخ يصنع الأدب ويوجهه • ويوحى الى الأدباء ، ويسيطر على أدبهم ، ورأيت الأدب يصنع التـاريخ ، فيقيم دولا ، ويهيج فتنا ، ويخمد أخرى ، ورأيته يعمد الى التاريخ فيستعير منه موضوعاته • ويستمد منه أحـداثه لينسج منها أو حولها صـورا من صوره كالمسرحيات أو القصص أو الروايات أو شبه ذلك •

وقد رأيت اليوم أن أسجل فى هذا المقال ما وقفت عليه من تفاعل بين التاريخ والأدب فى حدود التجربة التى مرت بى فى خلال عملى مدرسا للأدب ثم أستاذا للأدب والنصوص •

وقبل أن أخط سطرا فى هذا الموضوع ، أرى من الواجب أن أشير الى ان هذا الموضـوع قد كتب بايجاز فى كتاب التوجيه الأدبى (المطبعة الأميرية سـنة ١٩٤٠) تحت عنوان الأدب والتـاريخ ص ١١٩ • ولا شك أننى قرأته ولكنى وجـدت الجهد الذى بذلته والتفاصيل التى وصلت اليهـا أكثر بكثير مما هو مسطور هناك • فضلا عن أننى بذلت جهدا ، ووصلت الى حقـائق ، وعرفت شـواهد يعز علىّ أن أهملها أو أدفنها ، وفضلت لهـا أن ترى النور على صفحات هذه المجلة •

فالتاريخ هو قصص منتظم لنشأة أمة من الأمم وتطورها •

صلة التاريخ بالأدب :

وكتابته تعتبر فناً من أقدم فنون النثر الأدبى • وقد اعتبره اليونان فناً من الفنون الأدبيـة التى توحى بهـا آلهة من الالاهات يسمونهـا عنـدهم كليو CLIO • ويظهر أنه كان شعرا أولا حينما بدأ الناس يقصون أنباءهم ، ويتحدثون بقديمهم ويخترعون لأنفسهم قديما لا صلة بينه وبين الحقائق الواقعة ، ولكنهم مع ذلك كانوا يؤمنون به ايمانا قويا صادقا لما كانوا عليه من السذاجة ، وشدة التأثر بالخيال ، فهم قد وصلوا أنسابهم بالآلهة ، وأضافوا لأبطالهم من الأعمال ما لا يصدر عن الناس •

ومن هذا النوع من القصص نشأت الأسـاطير والسير التى كانت ترضى عواطف الناس وخيالهم وعقولهم الناشئة وتحدث لهم من أجل ذلك متعة فنية ساذجة •

وكانت هذه الأخبار تلقى على الناس شعرا منظوما قد تصحبه الموسيقى • وكان الشعراء يحتفلون بهذا الشعر من قرية الى قرية ، ومن مدينة الى مدينة . بل من اقليم الى اقليم • ينشئونه كلما هموا بالانشـاد أمام الجمـاعات • ثم كثر ما أنشأوه من ذلك • وأعجب النـاس به فحفظه منهم أفراد واتخذوا انشاده والتنقل به صناعة يعيشون منها ، ويعتمدون عليها فى كسب الحياة •

وعلى هذا النحو نشأت طائفة من القصص الشعرية ، لم تكن تخلو منها حياة أمة من الأمم القديمة التى تحضرت فيما بعد وقد حفظ من ذلك الأليذة والأودسة عند اليونان • ونحن نعتمد على هذه القصص فى تصوير الحيـاة الأدبية والفنية والتاريخ السياسى والاجتماعى لهذه الأمم فى عصورها الأولى •

وتقدمت الحضارة وعظم السلطان فى بعض الأمم ، فأقيمت الصروح الضخمة، وسجلت الأعمال العامة فى نقوش مطولة ربما تكثر فيها المبالغات ، ويشتد فيها الغلو ، ويصطنع فيها الخيال ، وقد بقيت لنا مقادير كثيرة من هذا الآثار المكتوبة وهذه الكتابات المسجلة على المعابد كانت مصدرا دقيقا من مصادر التـاريخ

أيضا يضاف الى المصدر الآخر وهو القصص الشعبية أى أنه أصبح للتاريخ القديم عندنا مصدران يتصلان بالأدب اتصالا وثيقا ، أو هما من صميم الأدب ، أحدهما شفوى روى ، والثانى مسجل مدون فى لغة أدبية •

وكان اليونان من الأمم التى سجلت تاريخها فى هاتين الصورتين الأدبيتين وكذلك قدماء المصريين •

ثم أخذت كتب التاريخ تظهر فى كلام منثور لا يخلو من تأثير الشعر ، فتكثر فيه الأساطير ويعتمد على الخيال كثيرا ولم يخل أسلوب تلك الكتب من محاولة الوزن والتنغيم الموسيقى • وكانت هذه الكتب وهذه القصص ربما قرئت على الناس كما ينشد الشعر • واذا رجعنا الى كتب كبار المؤرخين عند اليونان والرومان وجدناها تعتمد فى مصادرها على الأدب • فكان هيرودوت يعتمد على الشعر القصصى فى تاريخ اليونان ، وعلى أخبار الرواه والآثار المكتوبة وغير المكتوبة •

كتاب التاريخ لهيرودوت :

وقد عُد كتابه متعة فنية رائعة حقا ، نجد فيه اللذة التى نجدها فى قراءة الشعر القصصى ، وتتجلى قيمة الكتاب من الناحية الأدبية الخالصة فى أنه يُقرأ فى لغته الأصلية ، أو مترجما فتكون قراءته متعة لا يعرف عنها سأم ولا ملل •

وأشهر مؤرخ يونانى بعد هيرودوت هو تيوكوريدس • ويمتاز كتابه من الناحية الأدبية بأن مؤلفه أعرض عمدا عن رواية النصوص الدقيقة لما كان ينطق به الخطباء والزعماء والقادة ، وتكلم هو على ألسنتهم بما يصور مواقفهم وآراءهم ، فأنطقهم بغير ما قالوا ، وأضاف اليهم من الخطب الطوال والقصار ما لم يصدر عنهم ، وهى خطب منحولة • ولكنها تصور آراء أولئك الزعماء والقادة تصويرا صادقا •

ومصدر هذا أن تيوكوريدس عاش فى عصر التمثيل والخطابة والحوار ، ورأى الناس من حوله يذهبون هذا المذهب فينطقون الزعماء والقادة والأبطال

وأفراد النـــاس بألفاظ ينشئونها لهم انشاء ويحملونها عليهم حملا . فأشخاص القصة التمثيلية يصورون الأبطال والزعماء ، وينطقون على ألسنتهم بما يصنعه لهم الشاعر اذا أنشأ القصة . والمتخاصمون أمام القضاء يقولون كلاما قد أعده لهم المحامون اعدادا فحفظوه بعد ذلك حفظا ، وهم يتلونه تلاوة أمام القضاء .

ومهما يكن من شيء فان مذهب تيوكوريدس أنشأ التاريخ فنا أدبيا رائعا ، وأفاض عليه حيوية ، وجعل قراءته متعة لذيذة ؛ وهذه الخطب التى أنشأها تيوكوريدس لم تكن على مثال الخطب التى كانت تلقى فى المجالس والمجتمعات ، لم تنشأ لتلقى فتفهم فهما قريبا يسيرا ؛ وانما أنشئت لتقرأ على مهل وفى عزلة . فلها من الخطب شكلها ومظهرها ، ولكنها فى الحقيقـــة كتابة فنيـــة لا خطابة ، اعتمدت على العقل والمنطق والروية أكثر مما تعتمد على الخيال والعـــاطفة ، واتجهت الى العقل والتفكير أكثر مما تتجه الى الحس والشعور ، وكانت بذلك مثلا رائعا للرزانة والرصانة والاعتدال . وقد ذهب المؤرخون بعد ذلك مذهب تيوكوريدس أثناء العصر القديم كله ؛ فأنطقوا الأشخاص بما لم يقولوا ، ولكن قليلا منهم استطاع أن يبلغ من الاجادة والدقة ما بلغه تيوكوريدس . ولم يخالف هذه الســـنة من المؤرخين الذين جاءوا بعـــده الا بوليبيوس . كان مذهب تيوكوريدس أن ينشىء الخطب والمقـــالات الطوال وينحلها الساسة والقـــادة . وكان يتحرى وجه الحق فى تصـــوير ما كان يريد تصـــويره من آراء القـــادة والساسة فكان لفظه منحولا ، ومعناه صحيحا . وجاء المؤرخون بعده ففتنهم الفن فتونا ، واخترعوا الخطب والمقالات ألفـــاظها ومعانيها . ، وأضافوها الى القادة والساسة فى غير تحفظ ولا احتياط ولا تحر للصواب . حتى كاد التاريخ يكون أدبا خالصـــا ، متأثرا بالخيال أكثر مما يتأثر بالبحث والتحقيق ، ولكن بوليبيوس ألغى هـــذه الخطب والمقـــالات الغـــاء من كتابه ، وألغى الأساطير والأعاجيب .

كتاب التاريخ عند الرومان :

لم ينشأ التاريخ عند الرومان نشأة أدبية كما نشأ عند اليونان ، وسبب ذلك أن الآداب اللاتينية ظهرت فى عصر متأخر بعد أن تقدمت حضارة الرومان وارتقت نظمهم السياسية والاجتماعية . فهذه النشأة عند الرومان لم تتأثر بالشعر القصصى كما تأثرت به نشأة التاريخ عند اليونان .

ولكن لما تقدمت الحياة الرومانية ، واتصلت الرومان بالمدن اليونانية فى ايطاليا ثم ببلاد اليونان الحقيقية ثم بالدول الأجنبية الأخرى فكر الرومان فى ماضيهم وعظمة بلادهم ، ورأوا كل هذا جديراً بالتسجيل وأن تؤلف فيه الكتب ، و لاسيما بعد أن قرأ المثقفون الممتازون من أهل روما ما أنتج اليونان من أدب وفلسفة وتاريخ .

وقد ذهب الرومان فى العناية بالتاريخ مذهب اليونان كدأبهم فى فنون الأدب كلها . فهم قد قلدوا كتاب اليونان وشعراءهم وخطباءهم ، وتأثروهم واتخذوهم لهم أساتذة واتخذوا آثارهم الأدبية نماذج يحاكونها .

كاتو ٢٣٤ — ١٤٩ ق.م :

من أشهر المؤرخين الرومان . وكان أديباً خطيبا — أتقن اللغة اليونانية وآدابها ، وبرع فى الخطابة السياسية والقضائية براعة جعلته مخوفا مهيبا ، وقد شهد حروب روما مع هانيبال وغيرها من الحروب فى صقلية . وكتب كتابا ضخما فى تاريخ روما صور فيه نشأتها تصويرا دقيقا . ولكنه ضاع كما ضاعت خطبه . ولم يبق من آثاره الأدبية الا ما تحدث به النقاد الرومانيون الذين قرءوا هذه الآثار وأعجبوا بها عصورا متصلة . وقد أثر تأثيرا قويا جدا فى أجيال الخطباء الذين جاءوا بعده واتخذوه لأنفسهم نموذجا ومثلا .

وكان له صديق شاعر يونانى عرفه فى بعض أسفاره اسمه كنتوس اينوس ENNIUS وهو من يونانيى ايطاليا ترجم عن عواطفه ومحبته لروما شعرا فى اللغة اللاتينية . وقد طرق اينوس فنون الشعر المعروفة فى ذلك الوقت فمدح وهجا

ووضع القصص المحزنة والمضحكة . وكتب لروما تاريخا بالشعر فى ديوان ضخم ذهب فيه مذهب هوميروس فى النظم فاختار الوزن اليونانى للشعر القصصى ، ولكنه لم يذهب مذهب الخيـال المطلق ، وانما قيد نفسه بالدقة وايثار الحق ما استطاع .

وكان اينوس يعتقد أن نفس هوميروس قد حلت فيه ، وأنه يعرب عن هذه النفس باللغة اللاتينية ويقول النقاد والقدماء انه وان قصر عن البراعة الفنية التى امتاز به شعر هوميروس ، فانه قد أدخل فى الشعر اللاتينى وزنا جديدا ، ونظم التاريخ الرومانى نظما رائعا ، كان النـاس يستحبونه ، ويعجبون به أشـد الاعجاب .

ثم خمدت كتابة التـاريخ بعد كاتو واينوس لاعراض الرومان عن الفنون الأدبية وانصرافهم عنها الى الحياة العملية فى الحرب والسياسة والتجارة والزراعة والمال حتى جاء القرن الأول قبل المسيح ، فظهر فى الأدب اللاتينى علمان من أعلامه ، كتبا فى التاريخ فبلغا حظا عظيما من الاجادة والاتقان . أحدهمـا يوليوس قيصر والآخر سلوستوس SALLUSTUS .

قيصر :

ولد قيصر سنة ١٠٢ ، ومات سنة ٤٤ ق.م. وكان عظيما فى حياته وفى كل ما تولى من أعمـال . وقد عنى به تاريخ الأدب ، لأنه كان من عظماء الرجال فى الأدب ، وفى التاريخ خاصة .

وقد أقبل قيصر على الأدب منذ شبابه ، وكان من الخطباء البارعين ، لأنه اشترك فى الحياة العامة وهو شاب ، ولم يقتصر نبوغه فى الأدب على الخطابة ، بل تعداها الى الجدل ، والخصومة السياسية والأدبية العنيفة ، وكان شاعرا لبقا مترفا ينظم شعرا جيداً رقيقاً ، وكان نحويا لغويا يؤلف فى النحو واللغة أثناء سفره الى بعض حروبه ، ثم هو بعد هذا كله مؤرخ من أبرع المؤرخين . لا فى اللغة اللاتينية وحدها ، بل فى كل اللغات التى كتب فيها التاريخ قديماً وحديثاً ،

فأثره فى التاريخ أدبى تفخر به اللغة اللاتينية . وتستمتع به الانسانية المثقفة كلها على اختلاف العصور • كتب قيصر تاريخه بشكل مذكرات وصف فيها حروبه فى غالية GOLLIA (فرنسا) ووصف فيها بلاءه فى الثورة التى انتهت به الى الدكتاتورية .

وقد فتن الناس فى عصره وبعد موته بهذا التاريخ فتنة عظيمة ؛ وأسرع بعض الكتاب الى تقليده ، فألفوا الكتب فى وصف حروبه ، ونسبوها اليه ابتغاء الرواج ، ولكنهم لم يخدعوا أحداً ؛ لأن تقليد قيصر لم يكن يسيرا .

أسلوبه :

وأهم ما يمتاز به أسلوب قيصر فى هذا التاريخ أنه يروع ببراءته من التكلف وأنك تقرؤه فكأنما تسمع لمتحدث يتحدث اليك فى سهولة ويسر ، لم يتهيأ لهذا الحديث • وهو مع ذلك يضع ألفاظه فى أحسن مواضعها ، ويؤدى بها أصدق المعانى وأعظمها حظاً من القصد والصدق والاعتدال ، وحسن التفكير والتقدير ؛ وأسلوبه من السهل الممتنع يشق على الذين يريدون محاكاته ، ثم هو رائع بعد ذلك بما فيه من الصور التى يعرضها صاحبه لما رأى ولما أثار من حروب ، ولما كان بينه وبين خصومه من نزاع ، ولما دار بينه وبينهم من حديث .

وكتابته مملوءة بالحياة القوية ، يصف الموقعة من المواقع ، فترى الجيوش وهى تتحرك وهى تكر وتفر ، ويصف خططه فيسوق الحديث على سجيته فى لغة سهلة الى أقصى غايات السهولة موجزة ، بريئة من الفنون الرومانية التى ورثها الرومان عن اليونان • وقد اختلف قراؤه فى أسلوبه ، ولكن الذين أعجبوا ببعده عن الزخارف والتكلف كانوا أكثر عددا ، وكان شيشيرون لا يعدل بكتابة قيصر شيئاً .

سالستوس ٨٦ - ٣٦ ق.م :

له كتاب فى تاريخ روما ، يمتاز ببراعته فى التصوير ، وفى تصوير الأفراد خاصة ، والتعمق الى دقائق النفوس ودخائل القلوب • فى لفظ رائع وأسلوب

بارع ، وقد عد من عيوبه اسرافه فى التكلف ، وتتبع الغريب ، وتقليد الأسلوب اليونانى ، ولكن من أهم الأسباب التى أبرزت عيوبه معاصرته لقيصر والموازنة بينهما ، فبدا قيصر سهلا غير متكلف .

وهناك مؤرخان آخران يصوران مجد الآداب اللاتينية فى التاريخ هما « تيتوس ليفيوس » و « تاسينس » وأولهما يشبه هيرودوت ، والثانى يشبه تيوكوديدس .

تيتوس ليفيوس ٥٩ ق.م — ١٨ م :

كتب أكبر كتاب فى تاريخ روما منذ نشأت روما الى حروب أغسطس فى اثنين وأربعين ومائة جزء ، وقد تلقفه الناس وفتنوا بكل جزء كان يصدر منه ، فى ايطاليا ، وفى الأقاليم البعيدة ، حتى لقد قيل ان بعض الناس رحل من اسبانيا الى روما ليرى المؤرخ العظيم . وكفاه هذا من رحلته .

واذا كان كتاب هيرودوت غناء منثوراً لمجد اليونان ، فقد كان كتاب ليفيوس اشادة رائعة بمجد الرومان ، وكان كل منهما مدفوعاً فى كتابته بحبه لوطنه ، لا يتكلف الثناء والاطراء ، وقد خلق كل منهما قاصاً بطبيعته ، وكان حظه من قوة الخيال والشعر غير المنظوم أعظم من حظه من قوة العقل والميل الى التحقيق والتمحيص . فكثرت الأعاجيب والأساطير فيما كتب كل منهما ، وكان يساعد كلا منهما على ذلك أنهما كانا يجدانها فى حياة الشعب وأحاديثه ، وفيما صور الشعراء وسجل الكتاب ، وكان كل منهما يقبل ما يأتيه من ذلك ، ويصوره تصويراً أنيقاً ويستخرج العبرة منه ، ويجعله مصدراً للذة القلب وفائدة العقل جميعاً .

بل ان كلا منهما كان يندفع بحبه الشديد لوطنه الى ظلم التاريخ على غير عمد . يبالغ فى الانتصار ، ويهون من أمر الهزائم أو يهمل هذه الهزائم أحياناً ؛ وكان هيرودوت من الذين أنشأوا النثر اليونانى ، وأول من طوله ومهد سبله ، أما ليفيوس فقد جاء بعد أن تم تكوين النثر اللاتينى . بل بعد أن انتهى الى

أقصى غايات الرقى ، فظهر فيه قيصر وشيشيرون وغيرهما من الكتاب والخطباء ، فكانت مهمة الكاتب الرومانى أيسر من مهة الكاتب اليونانى هيرودوت . كما كانت مصادر التاريخ من محفوظات الدولة ومن الشعر والخطب ، وكتب التاريخ ميسورة للمؤرخ الرومانى « ليڤيوس » فكان ذلك سببا فى فراغه لفنه ، وكان كاتبا مجودا يعنى بأسلوبه عناية خاصة ويذهب به مذهب الخطباء فينحدث الى أذواق الجماعات وقلوبها ، وكان يعنى باللفظ ويتخيره كما كان يعنى بمخاطبة العاطفة والخيال ، وقد أنطق الخطباء والساسة بخطب وأقوال لعلهم لم ينطقوا بها أبدا .

تاسيتوس ٥٤ — ١٢٠ م :

اشتغل بالمحاماة زمنا ، وألف فى التاريخ كتبا أولها تاريخ القائد الرومانى أجريكولا AGRICOLA ويعتبر هذا الكتاب آية من آيات البيان اللاتينى ، صور البطل تصويرا رائعا ، وصور حياته النفسية التى كانت تقوم على الجلد والصبر والثبات للخطوب .

وله كتاب ثان فى أخلاق الجرماثينية ، وهو على ضآلة حجمه ؛ ذو قيمة ممتازة ، دقيق كل الدقة ، صادق فى التصوير كل الصدق .

وكان سيتوس يشبه تيوكوديدس عند اليونان فى بعده عن القصص وزهده فى الأساطير ، وحرصه على الايجاز وتعمقه للأشياء ، وتحريه للحق ، وكان قوى التصوير ، ولا سيما حين يصور الظلم والطغيان . ويعد تاستوس من أبرع كتاب النثر فى أى لغة من اللغات ، وهو من أجل هذا يكلف قارئه جهداً كبيراً ، ويمتع عقله ، ولكن هذا الجمال الرائع البادى فى كتابته كان آخر الضوء الذى يؤذن بخمود المصباح .

التاريخ عند العرب

لم يكن عند العرب فى جاهليتهم تاريخ مدون ، ولكنهم كانوا يعرفون ما كان عليه أسلافهم وبعض مجاوريهم من الأحوال المأثورة ، وأيامهم المشهورة ، وهى

كغيرها من أخبـار الأمم القديمة بعضها صحيح ، وبعضها حديث خرافة ، وقد جاءنا منها شيء غير قليل فى شـعرهم ونثرهم وأمثالهم كقصة الفيل ، وحرب داحس والغبراء ، وحرب البسوس بين بكر وتغلب ، ويوم ذى قار بين العرب والفرس ، وحرب الفجار .

وجاء الاسلام وجاء فى القرآن كثير من أخبار السابقين ، وكانت حيـاة الرسول صلى الله عليه وسلم حافلة بجلائل الأعمـال ، وكانت غزواته ، وكان فيها من المسلمين أبطال ، وحارب خلفاؤه من بعـده لنشر الدين والدفاع عن العقيدة ، وكانت لهم حروب فى البلاد المجاورة لهم ، وبعد فترة من الزمن عنوا بتدوين ذلك كله عناية فائقة ، وظهر فيهم مؤرخون كثيرون حتى أحصى بعض المستشرقين مؤرخيهم فى الألف السنة الأولى من الهجرة فبلغوا ٥٩٠ مؤرخاً ، عدا من فاته منهم .

وسلكوا فى كتابة التاريخ طرقا شتى ، فمنهم من ترجم لحياة شخص ، ومنهم من ترجم لجماعة ، ومنهم من ترجم للعلماء الذين من بلد واحـد ، ومنهم من ترجم لمشاهير الرجال أو لطائفة خاصـة من العلمـاء أو الوزراء أو الأمراء أو الشعراء أو الأدباء . ومنهم من ألف فى فتوح البـلدان ، أو كتب تاريخ قطر ، أو عصر أو بلد . ومنهم من أرخ تاريخاً عاماً كما فعل الطبرى فى كتابه ، أخبار الرسل والملوك ، وكما فعل ابن الأثير فى كتابه المسمى « الكامل » .

وهكذا تنوعت كتب التاريخ عند العرب تنوعاً كبيراً .

وبدأ التاريخ الاسلامى بالعناية بالسيرة النبوية ، وقد تأثر هذا النحو من التاريخ بكتب الحديث من حيث الاسناد ومن حيث اللغة ، ونمط التأليف .

واتجهوا بعد ذلك الى تاريخ الحوادث الاسلامية كموقعة الجمل وصفين .

وقد بدءوا رواية هذه الأخبار شفويا حتى جاء القرن الثانى فبدأ التدوين ومن الطبيعى أن تشمل هـذه الكتب المدونة عـدداً من الأساطير التى كانت متداولة عن الحوادث أو الأبطال أو المدن خصوصاً ما كان منها سابقاً لعصورهم

أو للاسلام . فهم قد يكتبون عن طوفان نوح فيروون روايات لا يقبلها العقل أحياناً ، وهم قد يتحدثون عن مأرب أو عن بلقيس ملكة سبأ ، أو عن فرعون ، أو عن كسرى ، أو عن ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، أو عن الاسكندر وبناء مدينته العظيمة «الاسكندرية» ؛ وهكذا فيضيفون الى التاريخ قصصاً ، ويخلعون على الملوك بطولات ، ويبنون تلك المدن العظيمة لبنة من فضة وأخرى من ذهب ، ويجعلون قصر بلقيس الممرد أعجوبة الدنيا ، وهكذا تختلط الأساطير بالتاريخ الحقيقى .

التـــاريخ والأدب

مما يجعل قراءة تلك الكتب ممتعة غرابة الخيال وخصبه ، واتساع نواحى القصص وتنوعها ، ولكنهم ألتزموا الدقة فيما يتصل بأخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتحروا الصحة فيماكتبوا عنه ، واتبعوا طريقة المحدثين فى العناية بالسند وارجاع الأخبار الى مصادرها الأولى على نحو ما يفعله المحدثون فى كتب الحديث . وكانوا يؤثرون نقل الأخبار كما وردت اليهم بعبـــاراتها ؛ ومن أشهر المؤرخين المسلمين الأوائل محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣٠٢ هـ .

واتصاله الوثيق بالأدب يرجع الى كثرة ما روى فيه من الأساطير والقصص عن بدء الخلق ، وتاريخ آدم عليه السلام ، وأخبار بنى اسرائيل ، وملوك بابل ؛ والفرس واتصالهم باليونان والرومان . ويعد الكتاب مرجعاً أدبياً عظيما لكثرة ما روى فيه من خطب ورسائل تتصل بالعصر الاسلامى والأموى وأوائل العصر العباسى ، وما ورد فيه من أشعار تتعلق بالوقائع والحروب والأبطال ، كما يعد تعبيره عن المعانى وتصويره للأحـــداث نموذجاً أدبياً راقياً من نمـــاذج التعبير والتصوير فى العصور الاسلامية المختلفة .

وكثير من كتب التاريخ الاسلامى تهتم بالأساطير القديمة والأخبار الغريبة التى رويت عن الأمم السابقة أو الأنهـــار العظيمة ، أو المدن الكبيرة ، واقرأ

مروج الذهب للمسعودى تجد فيه من العجائب حكايات لطيفة سائغة تقرؤها وأنت لا تصدق ما تقرأ فيها من تلك الأساطير ، ولكنك لا تستطيع أن تسكت عن القراءة حتى ينتهى الفصل أو الباب ، فهى تأسرك بأسلوبها ، وتجذبك بغرابة أخبارها ، ولكن فيهم من كان يؤثر الدقة ، ويميل الى النقد والتمحيص ويعمل عقله فيما ينقل أو يروى مثل ابن خلدون .. بل ان هذا المؤرخ العظيم فلسف التاريخ حتى قيل انه وضع أصول علم التاريخ ، ولم يجعله مجرد سرد حوادث تعتمد على الرواية ، بل هو فى نظره مبنى على أصول ، يعتمد على طبائع الأشياء وعلم الاجتماع والنفس ، ووضع مقاييس للأحداث يمتحن بها صحيحها من زائفها ، وقد كتب لتاريخه مقدمة مشهورة ملأها بآرائه ونظرياته القيمة فجاءت وحيدة فريدة فى تاريخ التأليف الاسلامى ، حتى قيل عنه — بسبب هذه المقدمة — انه سابق الى وضع أساس « علم الاجتماع » .

وقد تحدث فى المقدمة عن العلوم وأصنافها ، وكتب فصولا عن علوم اللسان العربى مثل علم النحو ، واللغة والبيان وعلم الأدب ، وبين أن اللغة ملكة صناعية ، وكتب فصلا فى تفسير الذوق فى مصطلح أهل البيان ، وأن هذا البيان لا يحصل غالبا للمستعربين من العجم ، وبين أن أهل الأمصار على الاطلاق قاصرون فى تحصيل هذه الملكة اللسانية ، ومن كان فيهم أبعد عن اللسان العربى كان حصولها له أصعب وأعسر ، وكتب عن انقسام الكلام الى فنى النظم والنثر . وأنه لا تتفق الاجادة فى فنى المنظوم والمنثور معا الا للأقل ، وكتب فصلا فى صناعة الشعر ووجه تعلمه ، وفى أن صناعة النظم والنثر انما هى فى الألفاظ لا فى المعانى ، وأن حصول الملكة يكون بكثرة اللفظ وجودتها بجودة المحفوظ ، وختم المقدمة بفصل قيم فى الموشحات والأزجال بالأندلس .

وهذه الفصول المتعلقة باللغة والأدب والملكة كتابة علمية جاء فيها بنظريات حاول التدليل عليها والاحتجاج لها .

المقريزى :

من أهم المؤرخين المسلمين الذين جاءوا بعد ابن خلدون ، وله الفضل الكبير فى تسجيل تاريخ مصر الاسلامية فى مختلف عصورها ، وألف فى تاريخ الفاطميين والأيوبيين والمماليك . وأهميتـه الكبرى تظهر فى كتابه « المواعظ والاعتبار ، بذكر الخطط والآثار » وهو المعروف بخطط المقـريزى ، وقد دون فيه مصر وأحوالها وسكانها وآثارها وشوارعها ، وجوامعها ، وأسوارها وبلدانها ، وغير ذلك ، واذا ذكر أثراً من الآثار أفاض فى تاريخه وما توالى عليه من الأحداث ، وما يتصل به من شئون اجتماعية ، واقتصادية وجغرافية .

وقد تحرر فى كتابته من الأسلوب العلمى الدقيق ، فتراه استعمل تعبيرات عامية ، أو آثر الألفاظ المستعملة فى عصره والمصطلحات التى جرى عليها أهل زمانه .

بين التـاريخ والأدب

لا شك فى أن الثقافة التـاريخية لازمة للأديب يستمد منهـا فيما يكتب ، ويستعين بها فى تفكيره ، ويقتبس منها الموعظة والعبرة ، ولولا تلك الثقـافة التاريخية الواسعة عند شوقى فى الناحية العربية الاسلامية ، والناحية المصرية ما استطاع أن ينشىء قصائده الخالدة فى توت عنخ آمون ، ولا قصيدته الهمزية

همت الفلك واحتواها المـاء وحـداها بمن تقـل الرجاء

ولولا الدراسة التاريخية الطويلة لتاريخ سيدنا عمر بن الخطاب ما استطاع حافظ أن يبدع العمرية ، ولا الشيخ عبد المطلب قصيدته العلوية ، ولولا ثقافة العقاد وقراءته ما اسـتطاع أن يبدع العبقريات ، ولا استطاع هيكل أن يثبت « حياة محمد » ،ولا الفاروق عمر ، ولا الصديق أبو بكر ، ولا طه حسين أن يكتب الفتنة الكبرى فى تاريخ سيدنا عثمان ، ولا جورجى زيدان أن يكتب

رواياته التاريخية المشهورة ، ولا استطاع شكسبير أن يكتب رواياته التاريخية من أمثال هنرى الثامن ولا هنرى الرابع والخامس ، ولا استطاع كارليل أن يكتب كتابه « الأبطال » ، ومن هذه الثقافة التاريخية استقى شوقى مسرحياته التاريخية مثل كليوباترا ، وعلى بك الكبير وقمبيز .

غير أن الأديب غير مقيد بحوادث التاريخ الدقيقة ، فقد يخترع شخصيات فى مسرحياته أو رواياته لغاية يراها ، كما اخترع شكسبير شخصية سيرچن فولستاف المرحة فى مسرحية هنرى الرابع ، وكما ابتدع جورجى زيدان كثيرا من الشخصيات أضافها الى رواياته التاريخية ، وقد رأى شوقى كثيراً ممن كتبوا عن كليوباترا لم ينصفوها • ورأى وهو مصرى أن هذه الملكة مصرية ، وأن الأدب قد ظلمها وافترى عليها ، فكتب مسرحيته لينصفها ، وجعلها مخلصة لعرش مصر وأرض مصر أكثر من اسرافها فى شهواتها وجعلها تقول فى احدى القطع :

أموت كما حييت لعرش مصر وأبذل دونه عرش الجمال

وجعلها تنتحر لأنها تأبى حياة الذل فتقول فى نفس القطعة :

حياة الذل تدفع بالمنايا تعالى حية الوادى تعالى

ولم يعترض النقاد على هذه الزيادة فى الشخصيات غير التاريخية لأنها تكون لازمة لبيان وجهة نظر ، أو لدفاع عن فكرة .

وخلاصة هذا أن التاريخ مادة خصبة للأديب يستقى منها عناصر أدبه ، ولا بأس به اذا زاد من عنده ما يراه لازماً لا تساق مسرحيته أو روايته .

وكتب التاريخ مصدر من مصادر الأدب فقد حوت هذه الكتب أشعارا وخطبا ورسائل لم تحفل بها دواوين أصحابها ، ولم يسطرها مؤرخو الأدب ، وان كتاباً مثل تاريخ الطبرى يحوى من ذلك ما تضيق به كتب الأدب ، وقد رجعت الى جمهرة خطب العرب لأستاذنا أحمد صفوت ، وكتاب جمهرة الرسائل له فوجدته اعتمد فى جمع هذه المجموعة على كتب التاريخ من أمثال الطبرى ، ومروج الذهب للمسعودى ، والكامل لابن الأثير .

وقل ان تجد مؤرخا للأدب لم يرجع الى كتب التاريخ ليرى السبب فى اتجاه الأدب تلك الوجهة أو هذه.فهم حين يتكلمون عن أدب العصر العباسى لا ينسون سلطان الفرس فى هذا العصر ، وتأثر الأدب بهذا السلطان فى عهد العباسيين .

وحين يكتبون عن الأدب الأموى ويلاحظون اتجاهه الى المدح والهجاء لا ينسون أثر الخلفاء فى ذلك . فهم كانوا يحبون المدح لأنه دعاية سياسية لهم ، وهو يخلد ذكرهم ويترك لهم أحاديث فى الغابرين ، وهو يرضى هواهم ، ويعجب أذواقهم .

وكثرة الخطابة فى صدر الاسلام وخمول الشعر أو تأخره عنها فى هذا العصر يعلله التاريخ بشدة الحاجة الى هذه الخطابة فى نشر الدين ، واثارة الحمية فى نفوس الجنود ، وكثرة المواقف الأخرى التى تدعو اليها فى ميادين القتال ، وفى معاهدات الصلح ، وفى التبشير بالفتوح ، وفى القيام بين يدى الخلفاء فى الوفادات الخ ..

ولا نريد أن ننسى الفرق بين كتب التاريخ فيما تعرضه من نصوص وبين كتب الأدب . فليست غاية كتاب التاريخ أن يعرض قصيدة كاملة لأنه ليس ديوانا للشعر ، وانما يعرض من نصوص الأدب ما يوافق غايته ، فقد يأتى بأبيات من وسط القصيدة ، وقد يأتى بأبيات غير متتابعة ، ولها فضل فى بيان الوقت الذى قيل فيه النص على وجه التقريب أو التحديد ، وفى توضيح معناه ، وبيان اشاراته والافصاح عن الشخصيات والأماكن والحوادث التى وردت فيها .

ولكن كتب التاريخ تحفظ ما يعنيها ، وكتب الأدب تروى ما يعجبها ويرضيها ، وقد يضيع بين هذين قدر كبير من الأدب لم يجد من يهتم بروايته أو تدوينه من المؤرخين أو الرواة .

وقد تجد من كتب التاريخ ما اهتم برواية أدب لولاه ما عاش ، فكتاب ولاة مصر وقضاتها للكندى حفظ لنا كثيراً من الأشعار التاريخية التى قيلت فى عصر العباسيين فى مصر ، سواء أكان قائلوها من المصريين أو من الشعراء الوافدين ،

وذكر تلك الأشعار فى المناسبات التاريخيـة التى قيلت فيها ، كما عرفنا بأسماء شعراء لولاه لم نسمع بهم .

واهتم بشعر القضاة وما قيل فيهم ، ولولاه ما اهتم رواة الأدب به ، فاننا قد لا نجد فى كتاب آخر غير الكندى ما نجـده فيه من شـعر هؤلاء القضاة والظروف التى قيل فيها . وقد جمعت ذلك أو كثيرا منه فى كتابى « تاريخ الأدب العربى فى مصر » تحت عنوانين الأول : الشعر التاريخى ، والثانى : الشـعر القضائى ، وبينت المراد بهذين العنوانين ، وقد رأيت شاعراً مصرياً مثل سعيد ابن كثير بن عفير لم يهتم به أحد كاهتمام الكندى .

وبعض المؤرخين كانوا أدباء يؤرخون العبارات الأدبية العالية أو المزخرفة فى الكتابة ، فهذا هيرودوت من أوائل مؤرخى اليونان يعد كتابه « أقدم كتاب منثور رائع عرفه الأدب اليونانى » وكتاب كاتو هو « أقدم ما عرف الرومان من النثر الأدبى البارع أيضا » .

وكان المحدثون والقصاص والمؤرخون عند العرب ينشئون نثراً فنياً رائعاً فى الأدب العربى حين كانوا يتحدثون الى الناس فى المساجد والمجامع والأندية يفعلون ذلك فى لغـة عذبة سائغة ، فيها رصـانة الأسلوب ، وجزالة اللفظ ، ويعتمدون على العقل والخيال فى تصوير الحوادث العظام ، والوقائع الهائلة ، وكانت جماهيرهم التى تستمع اليهم تشغف بهذا الأسلوب من الحديث يسجلونه وينقلونه الى من لم يستمع اليه ، وقد يضيفون مكملين أو مصححين لما قد يكون فيه من نقص أو خطأ . فضلا عن كتب التاريخ التى صيغت بالصيغة الأدبية فى القديم والحديث .

ولعل التاريخ هو أول فن من فنون النثر الأدبى المكتوب عـرفه العرب . « ولو أن باحثا أراد أن يستخلص وصفا دقيقا للنثر الأدبى التـاريخى عند العرب فى القرن الأول لما وجد فى ذلك مشقة ، وما عليه الا أن يرجع الى كبار كتب التاريخ ليرى فيها اختلاف الأساليب ومذاهب القول من عبارات رصينة ،

متينة اللفظ رائعة شائقة . وخذ مثالا لذلك تاريخ الطبرى والمسعودى والكامل وخذ كتب المحدثين ممن كتبوا فى التاريخ مثل الأستاذ فريد أبى حديد والأستاذ العقاد وخذ كتاب موكب الشمس للدكتور أحمد بدوى مدير جامعة عين شمس الذى يؤثر أسلوب ابن زيدون فى اقتباس العبارات والجمل من الأدب العربى الجزل ، ويقع على عبارات من القرآن أو الشعر من محفوظاته فيدخلها فى ثنايا كتابته فتستقر فى موضعها استقراراً ، ولا يضيق بها مكانها الذى اختارها له المؤلف . بل ان كتب التاريخ التى كانت تدرس فى المدارس الثانوية مثل كتب الأستاذ عمر الاسكندرى وسليم حسن ، وكتب رفعت وحسونة ، وكتب شفيق غربال تمتاز بأسلوب أدبى يجمع بين الدقة وقوة التصوير وسهولة العبارة .

ومن الكتب التاريخية القديمة التى تعد قطعاً أدبية أو نثراً فنياً تاريخ العتبى الذى وضعه أبو النصر العتبى فى تاريخ محمود بن سبكتكين ، وكتاب « الفتح القسى فى الفتح القدسى » الذى ألفه العماد الأصفهانى ، ووصف فيه فتح صلاح الدين لبيت المقدس بعبارة مسجوعة مع اغراق فى استعمال الجناس والتشبيه ، ونحو ذلك مما يتلاءم مع كتابة ذلك العصر وروحه .

أثر الأدب فى التاريخ

اذا كان التاريخ عاملا من العوامل المؤثرة فى الأدب ، وكان كتاب التاريخ أدباء يمتازون بنثرهم الفنى ، فان الأدب قد أثر فى التاريخ وغير مجراه فى أحوال متعددة ، وأن كثيرا من الأدباء قد أدركوا ما لهم من المقدرة على تحويل تيار التاريخ وتغيير اتجاهه ، وأول ما نعرف من ذلك فى الأدب العربى القرآن الكريم والرسول العظيم ، فقد كان للقرآن من الأثر فى تحويل العرب من جاهليتهم ، وكان له من الأثر فى نفوسهم ما قالوا عنه انه سحر وانه من وحى الشياطين « وما تنزلت به الشياطين ، وما ينبغى لهم وما يستطيعون » ، وقالوا عنه انه شعر

وكهانة لشدة فعله فى نفوسهم ، « وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن ، قليلا ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين » .

وقالوا عن الرسول انه شاعر وكاهن وساحر حين يحدثهم بالقرآن فيفتنهم ويحدثهم بالحديث فيأسر ألبابهم : « بل قالوا أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر » . « وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون » وقالوا « ان هذا الا سحر مفترى » . ولقد شهد له شهادة صادقة أحد أساطين قريش هو عتبة ابن ربيعة : روى أن أبا جهل قال فى ملأ من قريش : قد التبس علينا أمر محمد ، فلو التمستم لنا رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر فكلمه ثم أتانا ببيان عن أمره . فقال عتبة : والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر ، وعلمت من ذلك علما ، وما يخفى على ، فأتاه ، وكلمه وعرض عليه المال والرياسة والنساء ليكف .. فقرأ الرسول عليه من أول سورة فصلت الى قوله تعالى : « فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم أن يكف . وكذلك كان وقع القرآن فى نفوسهم . وتأثيره على عواطفهم . حتى غير دينهم وبدل حياتهم ، وأصلح آراءهم ومجتمعهم وتحداهم أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور مثله أو بسورة من مثله فعجزوا ، وانتهى أمرهم الى الهزيمة « ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .

وتوفى الرسول الكريم ، ولحق بالرفيق الأعلى ، واجتمع المهاجرون والأنصار بعد وفاته فى سقيفة بنى ساعدة بالمدينة ، واختلفوا فيمن يتولى أمرهم بعد الرسول ، فقال أبو بكر خطبة هائلة ، وحدت المسلمين فاجتمعت كلمتهم ، وبايعوه ، فأخذ بيدهم الى النجاة ووحد صفوفهم ، ورمى بهم العرب فثابوا الى رشدهم ورجعوا عن ردتهم وأدوا الزكاة .

واختلف معاوية مع على ، وتحاربا ، والتقت جيوشهما بصفين عددا من المرات ، وفى ليلة مشهورة تسمى ليلة الهدير ، كاد معاوية يفر من الميدان مهزوما ولو فعل لما قامت دولة بنى أمية ولا سمع بها التاريخ ، ولكن أبياتا من الشعر

مرت بخاطره ورواها فثبت فى المعركة ، وانتهى الأمر بتغلبه على جيوش على ، وآلت اليه الخلافة بسبب ذلك : يقول مبينا أثر الشعر على دولته :

اجعلوا الشعر أكبر همكم ، وأكثر دأبكم ، فلقد رأيتنى ليلة الهدير بصفين وقد أتيت بفرس أغر محجل ، بعيد البطن من الأرض ، وأنا أريد الهرب لشدة البلوى ، فما حملنى على الثبات الا أبيات عمرو بن الاطنابة :

أبت لى همـــتى وأبى بلائى ... وأخذى الحمد بالثمن الربيح
واقدامى على المكروه نفسى ... وضربى هامة البطل المشـــيح
وقولى كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدى أو تستريحى
لأدفع عن مآثر صـــالحات ... وأحمى بعد عن عرض صحيح

فتغير وجه التاريخ بهذه الأبيات ، وكانت ســـبباً فى قيام دولة بنى أمية فى الشرق من سنة ٤٠ — سنة ١٣٢ هـ .

وكان للشعر أثر فى نظام الوراثة فى عهد بنى أمية ، أو للأدب بوجه عام ، فان معاوية لما أراد أن يبايع لابنه يزيد بالخلافة من بعده حشد الخطباء فى الأمصار ، وأوعز الى الولاة أن يستعينوا بالأدب على ذلك ، وأوعز معاوية الى مسكين الدارمى أن يقول أبياتاً فى البيعة ليزيد ووجوه بنى أمية عنده تؤيد هذه البيعة ويكون فيها معنى الالزام للحاضرين . فلما اجتمع عنده من أعيان بنى أمية ، عبد الله بن عامر ، ومروان بن الحكم ، وسعيد بن العاص وأشراف الناس ، قام مسكين فأنشد قصيدة منها :

ألا ليت شعرى ما يقول ابن عامر ... ومروان أم ماذا يقول ســـعيد
بنى خلفـــاء مهـــلاً فانمـــا ... يبوئهـــا الرحمـــن حيث يريد
اذا المنبر الغـــربى خـــلاه ربه ... فان أمـــــير المؤمنـــــين يزيد
على الطائر الغربى والجد صاعد ... لـــكل أناس طائر وجـــدود
فلا زلت أعلى الناس كعبا ولا تزل ... وفود تساميهـــا اليـــك وفود

ولا زلت بيت الملك فوقك عاليا تشـــيد أطنـــاب له وعمـــود
قدور ابن حرب كالجوابى وتحتها أثاف كأمثـــال الرئال وقـــود

فقال معاوية ننظر فيما قلت يا مسكين ونستـــخير الله ، فلم يتكلم أحد من الحاضرين الا بالاقرار والموافقة ووصله معاوية ، ووصله يزيد .

وعرف خلفاء بنى أمية من بعده أثر الشعر فى مثل هذا الموقف ، فان مروان ابن الحكم كان قد عهد بالخلافة من بعده لابنه عبد الملك ثم لابنه عبد العزيز من بعده . ولكن عبد الملك أراد أن يجعل ولاية العهـــد من بعده لابنـــه الوليد ، فأوحى الى نابغة بنى شيبان أن يدعو الى ذلك ويؤيد الدعوة ، فقال شعراً منه :

لابنك أولى بمـــــــلك والده ونجم من قد عصـــاك مُطَّرح
داود عـــدل" فاحـــكم بســـنته ثم ابن حـــرب فانهم نصـــحوا

ولكن عبد العزيز مات قبل عبد الملك فسقطت المعارضة فى البيعة للوليد ، وأصبح ولياً لعهد المسلمين وخليفة من بعد أبيه ، وفعل الوليد فعل أبيه فأراد أن يخلع أخاه سليمان بن عبد الملك من ولاية العهد ويجعلها فى ابنه عبد العزيز فاستعان بالشعراء ، وقال جرير :

اذا قيل أى الناس خـــير خليفة أشارت الى عبد العزيز الأصابع
رأوه أحق النـــاس كلهـــو بهـــا وما ظلمـــوا ان بايعوه وبارعوا

واذا أخفق الشعر فى تغيير ولاية العهـــد فى هاتين المرتين فليس ذلك لعيب فيه ، وانما حدثت ظروف أخرى عاقته عن الوصول الى غايته .

ومن ثقة الأدب بنفســه ، وقدرته على تسكين الفتن أن الحجاج بن يوسف ، وهو وال على العراق خطب خطبته الأولى المشـــهورة فأخضع النـــاس لرأيه ، وخرجوا مسرعين الى محاربة الخوارج مع المهلب بن أبى صفرة ، وبلغه أن قوماً من الأعراب خرجوا يفسدون الطريق . فكتب اليهم رسالة يقول فيها مهدداً :

« والله انى لأهم أن يكون أول ما يرد عليكم من قبلى خيل تنسف الطارف والتالد ، وتدع النساء أيامى والأبناء يتامى ، والديار خراباً ، والسواد بياضاً »

فلما جاءهم كتابه كفوا عن قطع الطريق .

وفى آخر عهد بنى أمية كان عبد الحميد بن يحيى رئيس الكتاب وامامهم ، وخرجت المسودة من خراسان تريد المشرق بقيادة أبى مسلم الخراسانى ، فأراد عبد الحميد أن يستعين بالأدب ليغير وجه التاريخ فكتب الى أبى مسلم كتاباً يستجلبه به ، وقال لمروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، « لقد كتبت اليه كتاباً متى قرأه بطل تدبيره ، فان يك ذاك ، والا فالهلاك » ، وكان الكتاب لكبر حجمه يحمل على جمل ، فلما وصل الكتاب الى أبى مسلم أمر باحراقه وكتب على قصاصة منه الى مروان :

محا السيف أسطار البلاغة واتنحى عليك ليوث الغاب من كل جانب

فأفسد تدبيره ، واستمر فى طريقه حتى أزال ملك بنى أمية .

والذين درسوا تاريخ النهضة الحديثة فى أوربا المعروفة بالرنيصانص Renaissance أو الاحياء يعرفون أن من أهم عوامل هذه النهضة التى أخرجت أوربا من الظلمات الى النور ، وانتقلت بها من ظلام القرون الوسطى كان احياء الآداب والمعارف اليونانية والرومانية .

ولعلك لا تجد ثورة فى القديم والحديث الا وجدت وراءها نوعا من أنواعا الأدب يهيىء الأذهان والنفوس لها ويحمل الجماعات حملا عليها . فالثورة الفرنسية قد سبقتها كتابات ڤولتير وروسو . وثورتنا المصرية على الانجليز سنة ١٩١٩ ، كان يوقد نارها خطباء مصاقع ، وثورة الجيش الظافر المنصور كانت وراءها منشورات الضباط الأحرار ومقالات فى الصحف وروايات تهيىء لها الأذهان ، وكان النصر فى بور سعيد بعد خطبة الرئيس ناصر ، التى أعلن فيها أننا نحارب من يحاربنا ، ونسالم من يسالمنا ونعادى من يعادينا . فكانت خطبه فى تلك الفترة دعماً لايمانا وتقوية لقلوبنا ، وتثبيتاً ليقيننا ، وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم .